



لن يُسقط هذا الصراع الدولي الذي يحتمد في سوريا نظاماً، ولن يقضي على ثورة، ولن يصل إلى تسوية سلمية تخرج سوريا من مأزقها التاريخي، فمثل هذا الهدف غير وارد في استراتيجيات الصراع الدولي، ولا يرصد له الفاعلون موارد ولا قوى بشرية، هل سمع أحد باستراتيجيات مصممة لبناء الدولة، ما لم تكن هناك مصالح ملحة؟

فيما العكس هو الصحيح، يجري تصميم الإستراتيجيات الدولية، وفي حالات الصراع المتكافئ والمدعوم بميزان الردع، على قاعدة التوازن في النفوذ الذي تتم ترجمته على شكل تقاسم للحيز الجغرافي محل الصراع، كما حصل في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وشبه الجزيرة الكورية في الخمسينيات، وكذلك فيتنام في بداية السبعينيات. وفي هذه التجارب، تشكل الصراع وانتهى عند خطوط جغرافية، ثم تشكلت السردديات الوطنية والهويات الأيديولوجية وأشكال الإنتاج الاقتصادي وأنماط المعيشة، لتحول إلى خنادق لتحصين الحدود، وتثبيتها نهائياً.

تأتي التطورات في سوريا، أخيراً، ضمن سياق التسابق على مناطق النفوذ وتثبيت حدود الجغرافيات المستهدفة، فإذا كان الأسد، ومن خلفه روسيا وإيران، قد خططوا لاستثمار السلاح الكيميائي في عملية تفريغ غرب سوريا من سكانها السنة، واستكمال عملية السيطرة على "سوريا المفيدة"، فإن ضرب أميركا مطار الشعيرات العسكري كان بعرض تعطيل فاعلية الخطوط الأمامية المتاخمة للنفوذ الأميركي في شرق سوريا، واستكمالاً لعملية رسم الحدود بالنار، من منبع في الشمال إلى التنف في الشرق.

وتترافق تلك التطورات مع حالة من التمرس في المواقف الدولية، والارتكاز على القوة وسيلة وحيدة للحل، بالاعتماد على السيطرة النارية المتحققة لكل طرف. ومع وجود قوى إقليمية باتت ترى أن أنها القومي يقع خلف خطوط الصراع في سوريا، وأن الجميع يحارب في سوريا لحماية عواصمها، وبعيداً عن مدى مصداقية هذه النظرية، إلا أنها أصبحت المحرك الأساس للسياسات الإقليمية، والحافز الذي يدفعها لتبرير انحرافها في الصراع السوري.

غير أن الأهم في خريطة الصراع السورية أنه، في مجلـل الجغرافيات المتشكـلة في سوريا، ثـمة روابط ونسـاجـا اجتماعية باتـت تشكـل روافـعـ لـلـوـاقـعـ التـقـسيـميـ، وأـدـواتـ تـشـغـيلـيـةـ لـمـشـارـيعـ الـآخـرـينـ، فـالـجـمـيعـ يـقـاتـلـ السـورـيـينـ بـالـسـورـيـينـ، وـهـمـ المـادـةـ الـأسـاسـيـةـ عـلـىـ الجـبـهـاتـ، وـتـعـزـزـ هـذـهـ الـحـقـيقـةـ عـبـرـ فـنـاتـ صـاعـدـةـ فـيـ الـأـقـالـيمـ السـورـيـةـ لـدـيـهاـ تصـورـاتـ، وـتـفـرـضـ أـنـماـطـ سـيـاسـيـةـ خـاصـةـ بـهـاـ، وـهـيـ فـنـاتـ مـحـلـيةـ، الـوـطـنـ بـالـنـسـبـةـ لـهـاـ هوـ الـمـجـالـ الـذـيـ تـوـجـدـ فـيـ مـصـالـحـهـ وـرـوـابـطـ الـقـرـبـيـ الـمـباـشـرـ لـهـاـ بـالـعـرـقـ أوـ الطـائـفـةـ.

ولـاـ يـبـدـوـ أـنـ لـلـصـيـغـهـ المـطـرـوـحةـ لـلـحـلـوـلـ حـظـوظـاـ فـيـ التـطـبـيقـ، وـهـيـ تـبـدوـ مـعـوقـاتـ تـطـرـحـهـاـ الـأـطـرـافـ الـمـتـصـارـعـةـ أـكـثـرـ مـنـهـاـ مـقـارـبـاتـ لـلـحلـ، فـلـاـ روـسـياـ سـتـقـبـلـ، بـأـيـ شـكـلـ، التـضـحـيـةـ بـالـأـسـدـ الـذـيـ صـنـعـ لـهـاـ مـكـاـسـبـ جـيـوـسـيـاسـيـةـ، لـمـ تـحـلـ بـهـاـ فـيـ ظـلـ إـمـكـانـاتـهـاـ، وـلـاـ أـمـيرـكـاـ مـسـتـعـدـةـ لـلـقـبـولـ بـهـيـمـنـةـ روـسـيـةـ شـامـلـةـ عـلـىـ كـامـلـ الـجـغـرـافـيـةـ السـورـيـةـ، وـإـضـاعـةـ فـرـصـةـ تـمـنـحـهـاـ حـضـورـاـ قـوـيـاـ فـيـ شـرقـ سـورـيـةـ وـشـمـالـ العـرـاقـ.

عـلـىـ ذـلـكـ، أـصـبـحـ التـقـسـيمـ الـجـغـرـافـيـ فـيـ سـورـيـةـ وـاقـعاـ مـنـظـورـاـ وـمـعـاشـاـ، وـسـتـتـرـكـ الـصـرـاعـاتـ الـجـارـيـةـ وـالـتـسـوـيـاتـ الـمـحـتمـلـةـ عـلـىـ الـحـدـودـ وـالـمـسـاحـاتـ الـتـيـ يـحـقـ لـكـلـ طـرـفـ السـيـطـرـةـ عـلـيـهـاـ، وـهـذـهـ قـابـلـةـ لـلـخـضـوعـ لـعـلـمـيـاتـ تـبـادـلـ، وـالـتـيـ يـبـدـوـ أـنـهـاـ بـدـأـتـ باـكـراـ فـيـ مـاـ يـسـمـىـ اـتـفـاقـ الـمـدـنـ الـأـرـبـعـ، وـلـيـسـ بـعـيـداـ ظـهـورـهـاـ فـيـ الـحـسـكـةـ وـالـقـامـشـلـيـ وـرـيفـ الرـقةـ بـيـنـ الـأـكـرـادـ وـالـعـرـبـ. مـنـ الـمـسـتـبـعـدـ تـحـوـلـ الـصـرـاعـ بـيـنـ الـأـطـرـافـ الـدـولـيـةـ وـالـإـقـلـيمـيـةـ إـلـىـ صـرـاعـ مـباـشـرـ، هـذـاـ أـمـرـ يـتـجـنبـهـ الـجـمـيعـ، نـظـرـاـ لـارـفـاعـ تـكـالـيفـ وـخـطـورـتـهـ الـمـؤـكـدةـ. وـمـنـ جـهـةـ أـخـرـيـ، لـأـنـ هـذـهـ الـأـطـرـافـ مـقـنـعـةـ، إـلـىـ حدـ ماـ، بـالـحـصـصـ الـتـيـ تـقـعـ تـحـتـ سـيـطـرـهـاـ. وـبـالـتـالـيـ، مـحـفـزـاتـ الـصـرـاعـ الـمـباـشـرـ غـيـرـ مـتـوـفـرـةـ، وـيـمـكـنـ لـهـذـهـ الـأـطـرـافـ أـنـ تـتـعـاـيشـ مـعـ هـذـهـ الـحـالـةـ، وـتـوـفـرـ الـآـلـيـاتـ الـمـنـاسـبـةـ لـضـبـطـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـهـاـ فـتـرـةـ طـوـيـلـةـ. غـيـرـ أـنـ هـذـهـ التـعـاـيشـ سـيـدـفـعـهـاـ إـلـىـ تـرـكـيزـ مـوـارـدـهـاـ وـقـواـهـاـ لـلـحـفـاظـ عـلـىـ تـمـوـضـعـهـاـ، وـتـرـسـيـخـ حدـودـ تـلـكـ التـمـوـضـعـاتـ، مـاـ يـعـنـيـ، بـالـنـتـيـجـةـ، حـصـولـ ضـنـغـطـ مـكـثـفـ عـلـىـ وـحدـةـ الـجـغـرـافـيـةـ السـورـيـةـ، الـهـشـةـ نـتـيـجـةـ سـنـوـاتـ صـرـاعـ مـدـيـدةـ بـيـنـ مـكـونـاتـهـاـ، وـحـالـةـ الـفـوـضـىـ النـاـشـئـةـ عـنـ تـدـاـخـلـ الـجـغـرـافـيـةـ وـتـخـارـجـهـاـ بـيـنـ سـورـيـةـ وـالـإـقـلـيمـ، بـمـاـ يـجـعـلـ التـقـسـيمـ أـقـلـ الـأـكـلـافـ وـأـكـثـرـهـاـ فـاعـلـيـةـ لـلـحـالـةـ السـورـيـةـ.

ليـسـ مـبـكـراـ الـاعـتـرـافـ بـهـذـهـ الـحـقـيقـةـ الـتـيـ اـرـتـسـمـتـ عـلـىـ شـكـلـ مـنـاطـقـ مـنـفـصـلـةـ مـنـذـ أـرـبـعـ سـنـوـاتـ وـأـزـيدـ، وـكـانـتـ تـرـجـمـاتـهـاـ الـأـشـدـ وـضـوـحـاـ عـبـرـ عـلـمـيـاتـ التـفـرـيـغـ الـطـائـفـيـ وـالـعـرـقـيـ ضـدـ الـأـكـثـرـيـةـ فـيـ غـربـ سـورـيـةـ وـوـسـطـهـاـ وـشـرـقـهـاـ وـجـنـوـبـهـاـ. وـالـيـوـمـ يـأـتـيـ الـصـرـاعـ الدـولـيـ لـيـثـبـتـهـاـ، وـيـزـيدـ مـنـ مـنـسـوبـ التـعـقـيـدـاتـ الـمـحـيـطـةـ بـأـزـمـةـ مـعـقـدـةـ أـصـلـاـ، تـختـلطـ فـيـهـاـ صـرـاعـاتـ مـذـهـبـيـةـ وـعـرـقـيـةـ وـإـقـلـيمـيـةـ وـدـولـيـةـ. وـفـيـ هـذـهـ النـوـعـ مـنـ الـصـرـاعـاتـ، ليـسـ مـهـمـاـ لـأـيـ طـرـفـ الـاحـتـفـاظـ بـالـصـيـيـ (ـالـحـرـصـ عـلـىـ حـمـاـيـةـ وـحدـةـ سـورـيـةـ)ـ بـقـدرـ مـاـ يـهـمـ حـرـمـانـ الـطـرـفـ الـآـخـرـ مـنـهـ، فـلـاـ أـمـ لـسـورـيـةـ غـيـرـ شـعـبـهـاـ، وـلـاـ حـيـلـةـ لـشـعـبـهـاـ فـيـ مـواجهـهـ صـرـاعـاتـ أـكـبـرـ مـنـ طـاقـهـ وـقـدـرـاتـهـ الـتـيـ اـسـتـنـزـفـتـ فـيـ ثـورـةـ ضـدـ الـطـاغـيـةـ.

العربي الجديد

المصادر: